

اللغة العربية والعالم الحديث

شارل بيلا
جامعة السريون (باريس)

قيل إن العرب لم يتصوروا الزمان كما نتصوره نحن أبناء القرن العشرين، إلا أن المؤرخين المسلمين شعروا بفردانية الواقع التاريخية، أو بعبارة أخرى علموا أن التاريخ لا يعود ولا يستعاد، بالرغم من ذلك كله نرى جزءاً من تاريخ العرب، بل من تاريخ اللغة العربية، كأنه يتكرر في وقتنا هذا إذ أن الناطقين بالضاد تعترضهم - والأولى أن أقول: تعترفهم مشاكل شديدة التعقد شبيهة بما اضطر أجدادهم في صدر الإسلام إلى تذليله من الصعوبات فيما يخص اللغة ومقتضياتها.

فلقد دعيت إلى تبيان هذه المعضلات وتوضيحيها أي إلى الحديث حول إمكانيات اللغة العربية وهل هي جديرة بأن تستعمل في التعليم العالي والتقني، فهذا باب من أبواب العلم بعيد المرام صعب الطرق دقيق الفتح لأن مكانة العربية وموقعها من العالم الحديث موضوع يبعث على المجادلة والمساجرة ويضرم نار الأهواء، فيستوجب الخوض فيه بعض الاحتياطات والتحفظات.

فالمسألة التي طرحت على بساط البحث ترجع إلى التساؤل عن روح العربية - ولم أقل عبقرية العربية لأن العبرية شيء آخر لا يمت إلى مرادنا بسبب، وعن المصطلحات المستعملة في التعليم الفني والعلمي أتوجد و تستطيع أن تظهر إلى حيز الوجود أم لا، فيمكنتني أن أجيب عفوياً على هذا السؤال قائلًا إن جملة من المصطلحات غير موجودة إلى حد الآن، إلا أن أغلب ما يحتاج إليه منها ممكن الوضع جائز الاختراع، ومثل هذا التصرير من شأنه أن يقر العيون

ويثليج الصدور، غير أنني بحاجة إلى ضرب مثل بسيط إفهاماً للموافقين وإفحاماً للمخالفين: هبوا أن حارة جديدة قد بنيت في مدينة من المدن الكبار، فلا غرو أن إحداثها يثير مشاكل شتى منها مشكلة النقلات العمومية مثلاً، فما هي واجبات المسؤولين عند ذلك؟ فيجب عليهم أولاً أن يدرسوا المعضلة ويتأملوا معطياتها، أي أن يقدروا الحوائج الجديدة ثم يعددوها ويحصلوا الوسائل الموجودة فإن لم يكفل ما لديهم من سيارات النقل التمسوا مركبات أخرى على حسب ما يتقتضيه عدد السكان وهلم جرا، إلا أن النقلات لها إدارة منظمة وموظفو متدربون يعرفون موارد الأمور ومصادرها ويستخدمون الترتيب اللازم، أما اللغة فليس لها ديوان حكومي ولا يخدمها موظفو يطبقون مبادئ معلومة ويسلكون مسالك محدودة، بل يخدمها أفراد ليس لهم من الخبرة إلا حبهم للغة ومن المنهاج إلا ما خطر ببالهم، فعدم المنهاج أو إتباع منهاج اختباري لا يفضي في القرن العشرين إلا إلى الفوضى⁽¹⁾، وخلاصة القول ففي جميع الميادين ينبغي لمن أراد القيام بالحوائج الجديدة الناجمة عن تغير الأحوال أن يحصي هذه الحاجات ويستخدم جميع ما لديه من الوسائل لسد الثلمة الظاهرة: فإن نجح فله الحمد وإن أخفق فقد أبلغ العذر.

ومن شأن الإنسانية، من بدئها إلى آخر الأبد، أن تتغير أحواها وتطور فتتقدم وتترقى، ولو لا ذلك لعشنا في الكهوف والغيران وغضينا أجسادنا بجلود الوحش والسباع، غير أن الحضارة ليست بنصيب أمة من الأمم بل إنها نعمة عامة ينفع بها من شاء ويتركها من شاء، أعني بذلك أن البشرية إن تقدمت جملة فإن الأمم المختلفة تناوبت على المدنية وتدارلتها، فنشأت حضارات وكهلت ثم هرمت وماتت، فقادت مقامها حضارات أخرى صارت مصيرها وهكذا إلى يومنا هذا، ومن ناحية أخرى فمن المعلوم أن المدنيات المعاصرة كانت تتباين بقدر تباعد البلدان وتفاوت الأحوال الجغرافية والاقتصادية إلى غير ذلك من

(1) لقد كتبت هذه الأسطر قبل إنشاء مكتب التعريب الذي نشر معاجم مؤقتة لها أهمية كبرى في سهل التعريب ووضع المصطلحات المحتاج إليها.

العوامل الفعالة، فلم تزل هذه العوامل تعمل عملها وتوثر في شكل المدنيات، ولكن الدنيا بعد أن كانت فسيحة الأقطار أصبحت ضيقية الأنحاء متماستة الأجزاء رغمما عن النزاع السياسي أو الديني الظاهر الذي يكاد ينخفي بواطن الأمور، والحاصل أن جميع المدنيات تمثل الآن - في بعض نواحيها على الأقل - إلى شيء من الائتلاف والتشابه لا يخلو من أن يثير مشاكل شتى فيما يتعلق بمظاهر الحياة عامة، وباللغات المتكلم بها في مختلف أقطار العالم خاصة.

ثم إن التاريخ الكوني يعلمنا أن التقدم كان في أغلب الأوقات بطئاً تدريجياً لا يستعجل الأجيال المتالية في وضع الكلام المناسب للحضارة التي هو آلة لها وأداة، وكذلك كانت الحال في أوروبا على عهد الثورة الصناعية التي اندلعت في القرن التاسع عشر، فمنذ ذلك الوقت، وخصوصاً منذ الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، تهاطلت علينا المخترعات الصناعية والمكتشفات العلمية حتى قيل إن الشيء يكاد يؤخذ قبل أن يوضع اسمه، وأن المدلول يسبق الدال عليه.

فلا يخفى على أحد أن الدول الغربية لها اليد البيضاء في أكثر هذه المخترعات والمكتشفات، وحسن الحظ تكونَ ولا يزال يتكونَ كلام علمي مستمد من اللاتينية واليونانية اللتين أصبحتا معدنَين لا ينضان بعد أن كانتا أصلين أساسيين من أصول اللغات الغربية، ففي أغلب الأحوال يجوز أن تصير الكلمة موضوعة في أمريكا مثلًا فرنسية بغير تبديل إلا في النطق، ولكن الآفة التي لا مفر منها هي الاقتباس من اللغات الأجنبية في ميادين تستغني عن ذلك كالتجارة والرياضية، فالصحف الفرنسية وبعض الكتب مشحونة بألفاظ إنجليزية أو أمريكية لا حاجة إليها، ويشتكي أنصار الفرنسية هذا الاجتياح السلمي الذي أصبح خطراً على فصاحة اللسان⁽²⁾: يدل على ذلك كله على أن لغة عالمية كالفرنسية التي كانت إلى عهد قريب لغة الأوساط المثقفة في جميع أقطار

(2) حتى لقد نشر أخيراً أحد زملائي بجامعة السوربون الأستاذ (Étiemble) كتاباً ممعاً عنوانه: "هل تتكلمون بالفرنسية؟" (نحتا من فرنسية وإنجليزية) يعتقد فيه الذين يكررون من استعمال ألفاظ وتراتيب إنجليزية فيها يقولون ويكتبون.

أوربا، ولم تزل في بعض البلدان لغة الدبلوماسية لوضوحتها وبلاعتها، لا تستطيع أن تتبع التقدم وتوافقه إلا بجهد جهيد، ولكنها لم تتأخر بعد، وعليها أن تقوم بالحوائج الناشئة كل يوم فقط، فما ظنكم باللغات التي كان يتكلم بها رجال انتقلوا فجأة من حضارة بانت بروحانيتها إلى مدينة تميز بعاديتها؟ فهذه هي المأساة ومنها نتج القلق الذي يشعر به الناطقون بالضاد، فليس داء بلا دواء ولن تموت فالأمل ممكن، بل إنه إجباري، ولو خامرني أدنى شك في حيوية العربية لما تناولت هذا الحديث.

فحالة العربية الآن غير حالة اللغات الغربية لأنها لغة عريقة في القدم بلغت أوجها في القرون الوسطى، ثم ركبت عصورا طوالا، وانتعشت في القرن الماضي لأسباب معروفة تغنى استفاضتها عن إعادتها هنا، فتغيرت حينذاك الحضارة العربية تغيرا ملمسا، وأخذ سكان الشرق الأوسط من كل شيء غربي بطرف، حتى أنهم يفتقرن الآن إلى وضع عدد وافر من الألفاظ للدلالة على أمور موجودة في الغرب منذ أمد طويل، ويحتاجون، علاوة على ذلك، إلى تتبع الترقى السريع المستمر.

فإإن نحن أقينا نظرة إجمالية على ما تحتاج إليه اللغة العربية من الكلامرأينا أمسَّ الأشياء تتحصر فيما يلي:

أولا - العربية تحتاج إلى أمور وأشياء غير معهودة في المدينة العربية من ملابس وماكل ومشارب وأدوات وغير ذلك، تحتاج إلى مصطلحات كالراديو والتلفون والنيلون وغيرها مما يدخل في نطاق الحياة اليومية، أو بعبارة أخرى، فاللغة بحاجة ماسة إلى ألفاظ دالة على مدلولات حسية.

ثانيا - الحاجة إلى الدلالة على مفاهيم غير معروفة من قبل متعلقة بالحياة الفكرية والإدارية والسياسية الخ.. فأهم المشاكل في هذا الميدان هو أن تتفق جميع البلدان العربية على "مصطلحات" مقبولة فلا يقال مثلا هنا "دراجة" وهناك "عجلة" للدلالة على (Bicycle).

ثالثاً- الحاجة إلى المصطلحات العلمية والتقنية، فهذه المصطلحات هي التي تشغل أذهان الناطقين بالضاد فيتحيرون ويتساءلون عن سبب ما يظهر من تقصير في لسانهم وعن واجبهم في هذا المضمار إلى أمور من شأنها أن تشفى غليلهم.

ذلك أنها أن تأملنا لغة من اللغات، في وقت معين من تاريخنا، رأينا أنها تقسم إلى قسمين رئيسيين:

فالقسم الأول ما يجب على إنسان مثقف غير متخصص أن يعرفه من المفردات ليعبر عن أفكاره ويؤدي دوره في المجتمع ويقرأ الكتب والجرائد، فيتراوح عدد هذه الألفاظ حسب اللغات والأشخاص من بضعة آلاف، ومن هذه الكتلة اللغوية تنبثق روح اللغة وتظهر خاصيتها ومميزاتها.

وأما القسم الثاني فهو عبارة عن لغة متباعدة ضمن لغة واحدة، أعني بذلك كلام الأطباء مثلًا والفلسفه والتجارة والحدادة والمتخصصين في مختلف الصنائع والعلوم والفنون، فيعلم تلامذة صف الفلسفة في المدارس الثانوية أنه لا يمكنهم إدراك ما في كتبهم الفلسفية دون مراجعة معجم خاص يتضمن ألفاظاً كثيرة لا توجد في قواميس اللغة، وهكذا أصبح من الميسور أن نميز في هذا القسم الثاني فرعين: فالفرع الأول هو ما يجب على جميع الناس وبالآخرى المتخصصين منهم أن يعرفوه من المصطلحات الفنية والعلمية ليقال إنهم من الأدباء، لأن الأدب كما تعلمون هو الأخذ من كل شيء بطرف، وأما الفرع الثاني فهو خاص المختص وقدس الأقدس إذ يستعمل على المصطلحات الواجبة معرفتها لنيل شهادات التعليم العالي.

أما القسم الأول والفرع الأول من القسم الثاني فلا بأس بهما فيما يخص العربية لأن الجهود التي بذلها الكتاب والعلماء والصحفيون والخبراء قد أفضت إلى نتائج مرضية رغمما عن الاتفاق التام بين كثير من الألفاظ وما يناسبها في اللغات الأخرى، فلا أنكر هذه الأصالة ولا أستكرهها، غير أن المکروه هو عدم

الثبوت في المعنى لأن كلمة عربية ربما تدل على مدلولات ومفاهيم تتنقل بين حدين متبعدين، لقد حاولت في معجم صغير نشرته منذ أعوام أن أحدد معنى الكلمات المترادفة ظاهراً المتباينة باطنًا كافتراض واحتمال وغيرهما، ثم رأيت أن الكتاب لا يراعون تدريج المعاني وربما يضعون الكلام غير موضوعه بدون ورع ولا حرج، فعلى كل يبدو أن جملة اللغة وافرة غزيرة ومع ذلك يجدر بي أن أعترف بأن الثلم لم تسد بعد تماماً، وأن مفاهيم عديدة من الصعب التعبير عنها بعربية فصيحة، ولكننا إن قارنا بين حالة اللغة في أواخر القرن الماضي وبين حالتها الحاضرة، لاحظنا أنها تقدمت تقدماً باهراً فيما يخص الإعراب عن مظاهر الحياة الحديثة، وأني لا أعتقد أن الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرف الناطقين بالضاد جديرة بأن توسيع اللغة وتغييرها وترقيتها إلى مستوى عال سام.

أما الفرع الثاني فهو الذي يهمنا الآن لأن العربية متأخرة في هذا الميدان تأخراً نسبياً لا يجوز أن يعبّر به العرب أنفسهم، ذلك أن التعليم التقني والعلمي كان يتکفل به غالباً في الأقطار العربية أساتذة إنجليزيون أو فرنسيون وكان الطلاب يحسنون لغة غريبة فما زالوا الحسن الحظ يحيطون بها، ولكن الأقطار المورى إليها قد نالت استقلالها التام بعد الحرب العالمية الثانية، فأرادت الحكومات أن تعرب التعليم في جميع درجاته ونواحيه دون استعداد كافٍ بل دون إعداد الأحوال الصالحة، فلقيت بعثة صعوبات شديدة ظنت في أوقات اليأس أنها لن تذلل أبداً، فهذه المصاعب - والحق يقال - خفيفة هائلة غير أن أهل اللغة لم يواجهوا المشاكل من وجوهها ولم يشمروا عن ساعده الجد والكد حلها حتى ادعى بعضهم أنها محلولة فلا حاجة إذن إلى اعتبارها، وهذه حقيقة مرأة من واجبي أن أبرزها.

وقد قلت أيضاً إن التاريخ يتكرر أحياناً، فينبغي الآن أن أبدى رأيي في هذا الشأن: يعلم الحفاظ أن القرآن الكريم لا يتضمن كثيراً من المصطلحات الإسلامية التي يرجع فضل وضعها إلى علماء القرن الأول والقرن الثاني الذين

أجهدوا أنفسهم في إفراغ الألفاظ الالزمة في قوالب عربية حتى تصبح اللغة آلة صالحة للحضارة الإسلامية الناشئة إذ كان من الأكيد أن لهجة الحجاز ونجد كانت تقوم في الجاهلية بحوائج الشعراء والخطباء وسكان الوبر والمدر، ولكنها أضحت غير كافية بمجرد ما ارتقى العرب مدارج المدينة الرفيعة المتفننة التي نالوا بها مجدًا خالدا.

فنشأت إلى جانب العلوم الإسلامية التي تتطلب مصطلحات كثيرة، علوم أخرى كالجغرافية والتاريخ فضلاً عن الرياضيات والفلسفة وغيرها من العلوم، فلما تسلّم بنو العباس عرش الخلافة شجعوا حركة الترجمة حتى أن لفيفاً من المترجمين نقلوا من البهلوية واليونانية والسريانية عدداً جمّاً من الكتب الأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفية، فنمت اللغة وتوسعت بفضل المترجمين ثم المتكلمين وال فلاسفة الذين وضعوا أسس الكلام الفلسفية، ومن العجيب أن أكثر المصطلحات الإدارية والسياسية والفلسفية عربية الأصل – إن استثنينا أسماء النقود القديم اقتباسها كالدرهم والدينار والفلس، وعددًا يسيراً من الألفاظ الفلسفية نفسها مثلاً – فترك هذه الملاحظات الخاطفة على سعة الجهد المستمرة التي بذلت لكي تعرب المفاهيم المأخوذة من مدنیات أخرى، ولسوء الحظ لم يعن أحد بالأساليب والطرائق التي طبقت عفواً أو عن قصد في سبيل هذا التعريب.

ومع ذلك فإذا تصفحنا مثلاً كتاب هيولي الطب في الحشائش والسموم لدياسقوريدوس الذي نقل إلى العربية في القرون الوسطى ونشر مؤخراً في طوان (المغرب) رأينا أن المترجم لم يجد لعدد كبير من أسماء الحشائش والسموم ما يقابلها في اللغة العربية فأبقاها على حالها أي اقتصر على كتابتها بالحرروف العربية، وما يجدر بالملاحظة أن هذه أسماء كتابية صححفية لا رواج لها إلا في الأوساط المتخصصة من العطارين والصيادلة. فإننا سنصادف في مجرى بحثنا ما يشبه تمام الشبه بما قد مر ذكره، وبالضد فإن نظرنا إلى التحفة التي نشرها وترجمها إلى الفرنسية الدكتور رينو والأستاذ كولين وإدراجها في منشورات معهد

الدراسات العليا في الرباط بعنوان: «تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب» اضطررنا إلى الاعتراف بأن اللغة العربية كانت في القرون الوسطى تشمل على كثير من أسماء النبات والأعشاب التي تنبتها الأرض حول البحر المتوسط، فمن اعتنى من العلماء المعاصرين بفحص هذين الكتابين وأشباههما وبإقامة لائحة الأسماء المذكورة فيها؟

ولعلكم فهمتم من كل هذا الغرض الذي أرمي إليه والغاية التي أهدف إليها: فإن ما يعرضنا من مشاكل يمكن التما斯 حلولها وليس ذلك بممكناً فحسب بل ضروري إيجاري إذا أردنا أن تدوم هذه اللغة الجميلة العزيزة وتخل محلها بين اللغات الكبرى، فالوسائل التي هي لدينا مختلفة وسأذكرها بدون ترتيب منطقي ليأخذها من شاء ويتركها من شاء:

أولاً - رغم مما يزعم بعض الناطقين بالضاد فإن اللهجات العربية حية موجودة غير معروفة، فهي غنية واسعة تتضمن هنا وهناك ألفاظ عامية يومية الاستعمال لا توجد في اللغة الفصحى، منها خاصة مصطلحات أهل الصنائع، فلائي سبب لا يمكن الرجوع إليها عند الحاجة بشرط أن يتفق على معناها؟

ثانياً - رغمما عن افتخار العرب بماضيهم المجيد لم يستغلوا ثروة قريبة المنازل كثيرة المنافع ألا وهي اللغات الأجنبية التي أخذت من العربية في القرون الوسطى بألفاظ لم تزل حية إلى الآن، فلعل أهم هذه اللغات التركية التي ردت للعربية «جمهورية» و«لسان الحال» وغير ذلك وتستطيع أن ترد لها أيضاً قسطاً من المصطلحات الطبية والعلمية، ثم تليها الفارسية وكثيراً ما ألجأ إلى قاموس فارسي إذا ما صادفت كلمة عربية لا توجد في المعاجم العادية بالمعنى الذي كانت تستعمل به في القرون الوسطى، لأن أصحاب القواميس العربية لم يقيدوا المولدات، وأظن أن معاصرينا لم يكتروا لذلك، كما أنهم لم يتৎغعوا باللغات الغريبة كالإسبانية والفرنسية وغيرها، وإنني أعتقد مثلاً أن اللفظة المعروفة

(chéque) التي صارت في العربية «شيك» هي في الأصل «شك»، ولننسى على ذلك.

ثالثاً - وبالعكس من ذلك لا تtower العربية عن الاقتباس، ومن المعلوم أن الدخيل فيها غير قليل إلا أن المسلمين أنفسهم يقررون بأن في القرآن ألفاظاً غير عربية الأصل كمنبر وصراط وصلة وغير ذلك مما ذكره النحويون، حتى ذهب السيوطي على أن في القرآن بعض كلمات بربيرية.

ولكن مسألة الاقتباس من اللغات الأخرى مسألة دقيقة صعبة، فإن اللهجات، بما أنها حية، يمكنها أن تقبل جميع المفردات الأجنبية فتعرّبها تعرّبها نسبياً حتى يقال قبطان (capitaine) على وزن فرمان، وجن النار (général) أو تبقيها على حالها كطموبيل (automobile) وأوتيل (hôtel)، أما الفصحى فلا تتمتع بحرية تامة وإن بدلت الكلمة الدخيلة لتفرغها في صيغة شوهتها وجعلتها غير مفهومة، فإن أخذتها اللغة كما هي لم يعرف من جهل اللغة الأصلية كيف يقرأها، وقال مثلاً تلفون (بضمتين)، وزد على ذلك أنه من الصعب أن يجمع أهل اللغة على مثل هذا الدخيل إلا بعد طول المدة، إن لم تمت الكلمة في أثناء ذلك، فالأفضل، إذن، أن يقتصر علىأخذ الألفاظ التي لها أشباه في اللغة فتنضم بسهولة تامة إلى السلالل اللغوية، كقلم على وزن علم، وتلفظة على وزن فلسفة، وغاز على وزن نار.

وأما الألفاظ التي لا تُعرّب بسهولة فأعتقد أن الكف عنها أحسن والتماس كلمات عربية أصوب، فإذا تنافست كلمتان إحداهما عربية والأخرى دخيلة فالأفضل أن تستعمل الأولى بدل الثانية، فقد قرأت في محضر من محاضر الدرك السوري: «كلمناه هاتفيما» ومن العجيب أن أكثر الناس يقولون تلفونياً أو بالتلفون مفضلين كلمة غير عربية بدون جدوٍ ولا منفعة، فهذا مظهر من مظاهر الفوضى السائدة في الوقت الراهن، وبالعكس فإن تنافست كلمة دخيلة واضحة كفِلم وأخرى عربية ذات معانٍ شتى مثل شريط، فالأولى أن تقدم الأولى على الأخرى.

فلا يجوز وأنا بصدق هذه الدراسة الوجيزة لتصريف الدخيل من الكلام إلا أن لا أحظ أن الخط العربي قلماً يحتفظ بأصوات الكلمات المأخوذة، وعلى سبيل المثال فإني لا أدرى كيف أكتب اسمي حينما أمضى كتاباً أو مقالاً بالعربية؟

فيإن الاتفاق الذي ذكرته آنفاً بين (فيلم) والجهاز الصوقي العربي قليل الوجود نادر الحدوث، ولذلك قد تجاوز بعض الناس الحق إلى الباطل فاقترحوا استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية، ولكنني أعتقد أن مثل هذا المشروع مكتوب عليه الفشل، لأن العربية غير التركية، وأيقنت أن الخط العربي سيذوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك لقد تأملت هذه القضية فرأيت أن تستعمل الحروف اللاتينية في أحوال معينة وأوقات محدودة معلومة ونواح خاصة من التعليم العالي، أي في كليات العلوم والصيدلة إذا ما طرق باب المركبات الكيماوية مثل: (methylaminoethanol) لأنني أظن أنه ليس من الضروري أن يتسم الأساتذة تعريب هذه المولادات – بمعنى الكلمة الأصلي – الحوشية، فيكفي إذ ذاك أن يعرف الطالب الخط اللاتيني، وبما أنهم مضطرون لأسباب أخرى إلى معرفة لغة أجنبية فليس في ذلك عظيم الضرر.

ومن جهة أخرى يعلم الجميع أن علماء النبات والحيوان يستعملون في العالم أجمع اسماء ونوعاً لاتينيين لكل جنس ونوع من النبات والحيوان، فهذه الأسماء والنعوت مُجمع عليها، كما قلت في العالم كله والروس أنفسهم الذين يكتبون بخط خاص يذكرون لكل حيوان ونبات اسمه ونوعه باللاتينية، ومع ذلك أرى بعض الناطقين بالضاد ينفردون وينفصلون عن سائر العالم فيridون أن ينقلوا هذه المصطلحات من اللاتينية إلى العربية بدون فائدة.

ولكن لا أرى مانعاً من تعريب بعض المصطلحات المستعملة في التعليم الثانوي، وأستحسن المنهاج الذي قد طبق منذ أمد طويل في سوريا حيث تستعمل أسماء مركبة من اللفظة العربية الأصلية، والنهاية الفرنسية مثل كبريتور وكبريات.

رابعاً- أن اللغة العربية غنية جداً، ولكن اللغويين الذين ألفوا المعاجم على حسب نظرتهم اللغوية جمعوا ما استطاعوا جمعه من لغات القبائل وكلام الشعراء، ولم يلتفتوا إلى الألفاظ المولدة التي قد يحتاج إليها في الوقت الحاضر، ولقد جعلتني مطالعة الكتب القديمة أعتقد أن تنقيباً دقيقاً في مؤلفات القرون الوسطى سيجلب غالات وافرة ذات قيمة لا تقدر.

خامساً- أن اللغة العربية مرنة جداً بفضل الاشتراق، فلها المصادر وأسماء الآلات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك مما يسهل وضع كلمات جديدة، فلا أستنكر مثلاً «مكتاب» على وزن «منشار» للدلالة على الآلة الكاتبة، و«نحال» لمربى النحل، والذي استثنعه هو ما يسمى بالنحو كمثل «تحتربه» (Underground) أو ما «مافوسجي» (ultraviolet) (ما فوق البنفسجي)، أما الألفاظ المركبة من «لا» وكلمة أخرى (لامبالاة، لا شيء، لا نهائي) فلا بأس بها لأن هذا التركيب قديم لا يخالف روح العربية مخالفة منكرة.

سادساً- لأكثر المفردات القديمة معانٌ شتى يجوز أن يستخرج منها معنى ملائم لما يحتاج إليه قام الملاعنة، ولما يسمى التضمين دور هام في توسيع اللغة وإغنائها.

تلك بعض الوسائل الصالحة لسد الثلم الباقي في اللغة العربية، وقد استخدمت قليلاً أو كثيراً منذ القرن الماضي، ولكنني أعتقد أنه من الواجب على الناطقين بالضاد أن يدركون أن وقت المنهاج التجريبي قد مضى، وحان زمان المنهاج المنطقي العلمي، لأن الحالة الراهنة لا تفضي إلا إلى القلق والغصة ولا تنتج إلا الإضطراب والفقر، فإن عشر أحدهم على كلمة جيدة أو اخترعها من تلقاء نفسه لم يلبث منافسوه وحساده أن يستقبلوها فيحاولوا أن يروجوا مكانتها كلمة أخرى أقل جودة وفصاحة وهلم جرا، فهكذا تتعدد العبارات الدالة على مدلول واحد، في حين أن عدة مفاهيم لا يمكن التعبير عنها.

فيإن أراد المسؤولون تنمية العربية وتوسيع نطاقها وترقيتها إلى مستوى اللغات الكبرى، فعليهم أن يتذبذبوا مختلف التراتيب دون أن يتتكلوا على المجامع

العلمية رغم ما تبذله من الجهد في هذا المضمار، فإني لم أزل منذ ربع قرن موقناً بأن اللغة العربية جديرة بأن تصبح لغة عالمية، ولكنني أتأسف على ضياع الوقت وعدم المنهج واضطراـب المساعي الفردية التي تذهب أحياناً إدراـج الرياح، فمن المرغوب فيه أن تؤلف جامعة الدول العربية عدة لجان⁽³⁾ مركبة من متخصصين في علم من العلوم وصناعة من الصنائع وفن من الفنون، وتتكلـفها بتأليف قاموس يوزع في جميع المدارس من الابتدائية إلى العالية لكي تُوحـّـد اللغة ويــزول الاختلاف.

* مجلة "اللسان العربي": العدد الخامس (5)، من الصفحة 55 إلى 50. سنة النشر: 1967.

(3) هذا اقتراح كان قبل أن يؤسس المكتب الدائم لتنسيق التعرـيب في العالم العربي.